الوحدة الفلسطينية التي صاغتها المقاومة

قارن تصريحات نتنياهو وجيش الدفاع الإسرائيلي التي صدرت في بداية حربهم على غزة بالصمت الذي ساد حتى الآن بشأن ما أنجزوه. مازالت الأنفاق موجودة، ولم ينزع سلاح حماس ولم تعطل قوتها، بل ظلت صواريخها تنطلق حتى اللحظة الأخيرة. لا توجد كلمة واحدة في اتفاقية وقف إطلاق النار حول متطلبات إسرائيل الأمنية. وبالفعل، بحسب ما صرح به موسى أبو مرزوق، نائب رئيس المكتب السياسي لحماس، ألزمت إسرائيل نفسها بالتوقف عن اغتيال قادة المقاومة. ومن المفروض أن تفتح جميع المعابر الحدودية بين إسرائيل وغزة.

آلة الدمار التي أعملتها إسرائيل في هذا القطاع الأفقر والأكثف سكاناً في العالم على مدى خمسين يوماً لم تميز بين أهداف مدنية وأخرى عسكرية، ولم تميز هذه القوة الغاشمة بين مصالح إسرائيل التكتيكية ومصالحها الاستراتيجية.

وأحد هذه المصالح هي إبقاء الحصار مفروضاً على قطاع غزة. لا توجد الآن حكومة واحدة في أوروبا أو أمريكا تعتقد بأن مساعدة إسرائيل في إبقاء الحصار فكرة جيدة، كما أن موضوع نزع سلاح حماس لم يعد مطروحاً، ومنع حماس من إعادة التسلح قضية مختلفة وتتطلب سياسة مختلفة. أحد المؤشرات على الانتقال في الموقف من الإصرار على نزع سلاح حماس إلى منعها من إعادة التسلح كان الوثيقة المثيرة للاهتمام التي قدمها ممثلو ألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة إلى مستشار الأمن القومي الإسرائيلي يوسي كوهين والتي كان من المفروض أن تشكل أساساً لقرار يصدر عن مجلس الأمن الدولي.

ونتيجة لهذه الحرب تلاشى الهدف الاستراتيجي الثاني لعدد من الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، ألا وهو إبقاء الفلسطينيين منقسمين، إذ كان ذلك هو حجر الزاوية في استراتيجية استهدفت الحيلولة دون ولادة دولة فلسطينية قابلة للحياة، وذلك بالرغم من أنه لا يمكن التقليل من أهمية الكراهية الشخصية التي يكنها محمود عباس لحركة حماس. نعم، لقد كانت الحرب الأخيرة هي العدوان الإسرائيلي الأكثر وحشية على غزة حتى الآن، ولكن، لم يكن ذلك بلا عواقب، فالأمور لم تعد إلى ما كانت عليه قبل خمسين يوماً.

ولا أدل على ذلك من الاحتفالات التي شهدها قطاع غزة في الليلة الفائتة. غدت اتفاقية الوحدة السياسية بين فتح وحماس أقل أهمية في هذا الشأن، وبشكل خاص أكثر وهناً، من الجانب العسكري. وصحيح أن حماس لم تنجح في كسر الحصار وصحيح أن الجولة الثانية من المحادثات في القاهرة حول

الميناء البحري والمطار قد لا ترى النور، أو الأكثر احتمالاً، أنها قد تبدأ ولكن لن تخلص إلى شيء.

إلا أن ما أنجزته الحرب على مدى خمسين يوماً في غزة هو استعادة مفهوم أن المقاومة المسلحة هي الطريق نحو الوحدة الفلسطينية. وذلك بالضبط هو ما كان يحتفل به الغزيون والفلسطينيون حول العالم. لم يرد ذلك في مخططات نتنياهو ولم يخطر بباله. تذكروا أنه حينما بدأ الحرب قبل خمسين يوماً قيل له إن الوقت كان مناسباً جداً لضرب حماس، وكانت حسابات إسرائيل وحسابات السلطة الفلسطينية أن شعبية حماس قد تآكلت وأن الغزيين سيثورون عليها لو أن البؤس والشقاء حل بهم بسبب اندلاع حرب أخرى ضد القطاع. وظن نتنياهو أن حماس كانت تعاني من نقص حاد في الأموال بسبب توقف الدعم الإيراني ونقص حاد في السلاح بسبب قطع الطريق عليها في سيناء وخاصة بعد أن أغلقت مصر جميع الأنفاق. بل راجت أيضاً شائعات بأن محمد دحلان كان يستعد للتنصيب في غزة من جديد بعد القضاء على حماس.

إلا أن العكس تماماً هو الذي حصل. فقد شقت حماس طريقها نحو الصدارة من خلال المقاومة. حتى في أوج الانتفاضة الثانية كان الناس يعتبرون فتحاً شريكاً في قيادة العمل المقاوم، ويعزى ذلك بشكل كبير إلى دورها التاريخي. أما اليوم، فلا تساور الشكوك أحداً في الشارع الفلسطيني حول من الذي يقود المقاومة الآن. إنها كتائب القسام. ولا تساور الشكوك أحداً حول هوية الشخصية التي تقود المقاومة. إنها محمد الضيف. لقد أسفرت الحرب عن تولي كتائب القسام موقع الريادة في قوة مقاومة ضخمة تشتمل على فصائل فلسطينية متحالفة مع حركة فتح، وعن وضع باتت المقاومة فيه متفوقة على الانقسامات الفصائلية والأيديولوجية ومتجاوزة لها، مما مكنها على تجسير الهوة بين حماس وفتح في ساحة المعركة.

ولقد تجلى التغير في ميزان القوة بين الفصيلين الفلسطينيين الرئيسين، أيضاً، في اجتماع عاصف في الدوحة انعقد بين عباس وخالد مشعل، انتقد خلاله مشعل عباس بسبب ما يجري في الضفة الغربية من قمع للمتظاهرين، فما كان من عباس إلا أن اتهم مشعل بأنه يدبر للانقلاب عليه، وذلك في إشارة إلى خبر يتيم ورد في بعض وسائل الإعلام الإسرائيلية، فرد عليه مشعل مقرعاً بأن ما من أحد بإمكانه تدبير انقلاب بينما الضفة الغربية بأسرها رهن الاحتلال. ثم طلب مشعل معرفة متى سيوقع عباس على معاهدة روما حتى يتسنى للدولة الفلسطينية غير العضو في الأمم المتحدة الانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية، مذكراً إياه بأن كافة الفصائل الفلسطينية وافقت على ذلك فيما عدا عباس نفسه. أخبرني مصدر مطلع أن مشعل كان يلح على عباس ليعرف منه متى سيوقع إلا أن الأخير كان يماطل في الإجابة.

كما كان من تداعيات الحرب أنها فضحت أولئك الذين كانوا يهمسون في أذن نتنياهو ويوسوسون له، وكشفت عن السبب وراء إصرار كل من إسرائيل ومصر على تجاوز الولايات المتحدة، ولي نعمتهما والمتفضلة عليهما بما تقدمه لهما من مساعدات مالية. إنه الدعم السعودي والمصري والإماراتي لإسرائيل، الذي كان يمضي سراً قبل الحرب ثم خرج إلى العلن بعد اندلاعها. لم يملك المسؤولون الإسرائيليون القدرة على منع أنفسهم من التبجح بذلك. لقد اكتشفت إسرائيل أن عبد الفتاح السيسي وولي عهد أبو ظبي محمد بن زايد كانا ينشدان تدمير حماس أكثر مما كان ينشده الإسرائيليون، وذلك أن الإمارات والسعودية اعتبرت الحرب على غزة جزءاً لا يتجزأ من حملتها ضد الإخوان المسلمين بشكل خاص وضد الإسلاميين بشكل عام في كافة أرجاء شمال أفريقيا.

لم يكن من المصادفة في شيء أن يشهد الأسبوع الذي سبق إعلان وقف إطلاق النار في غزة قيام الإمارات العربية المتحدة، انطلاقاً من مطارات مصرية، بقصف مواقع للإسلاميين وأهداف مصراتية داخل طرابلس في ليبيا للحيلولة دون وقوع المطار في أيديهم. نعم، إنها حرب بالوكالة هذه التي تدور رحاها

في ليبيا، والتي شهدت مؤخراً اشتراك طائرات خليجية وقواعد مصرية بشكل صارخ ومباشر. بل، لقد أغضب التطور الأخير الأمريكيين لدرجة أنهم سربوا المعلومات حول التورط الإماراتي والمصري إلى صحيفة النيويورك تايمز. هذه هي نفس الدول التي أرادت تدمير حماس لنفس الأسباب، ولكن باءت بالفشل ولم يتحقق لها ما أرادت.

طبعاً، لم ينته الصراع بعد، ولم يتحقق لحماس كل ما أرادت، فلن يشهد قطاع غزة في المستقبل المنظور لا فتح الميناء البحري ولا فتح المطار، ولم تتمكن حماس من تحرير الأسرى الذين أعيد اعتقالهم حينما شنت إسرائيل حملتها القمعية على الضفة الغربية بعد عملية اختطاف وقتل الشبان المستوطنين الثلاثة.

بالرغم من محاولات حماس مقاومة الإذعان لذلك، إلا أن مصر ظلت الوسيط الرسمي في المفاوضات بعد أن رفضت إسرائيل قبول أي دور لقطر أو تركيا. وظلت وساطة مصر مصدر توتر مستمر حتى اللحظة الأخيرة التي سبقت الإعلان عن وقف إطلاق النار. ولم ترد مصر ولم يرد عباس تمكين حماس من ادعاء النصر. وكان ذلك بالضبط هو أحد الأهداف التي سعى لتحقيقها من الحرب – إلا أنه مني بالفشل – ذلك التحالف غير الرسمي بين إسرائيل والسعودية والإمارات، وهو هدف تنصيب عبد الفتاح السيسي زعيماً إقليمياً، ولعل الجهود في هذا المجال لم تتوقف بعد.

قدرت حماس أنه لربما كان من الأفضل لها أن تتفاوض ضمن وفد موحد، إلا أن ذلك كان يعني إمكانية أن تتعرض حماس للضغوط لتقبل بما تعتبره صفقة محدودة. وفعلاً، ما لبثت الضغوط على حماس أن تعاظمت من داخل الوفد الفلسطيني إلى المفاوضات نتيجة للتكتيك الذي لجأت إليه إسرائيل في الأيام الأخيرة من الحرب، ألا وهو تحويل أبراج سكنية بأكملها إلى ركام داخل مدينة غزة مما زاد بشكل دراماتيكي أعداد الفلسطينيين الذين باتوا بلا مأوى. يقدر عدد هؤلاء المشردين اليوم بما يقرب من 450 ألف إنسان، وقد خلفت الحرب 2143 شهيداً و 10224 جريحاً. ما من شك في أنه ثمن باهظ فعلاً.

يتوقف المستقبل الآن على مدى قدرة حماس على تعزيز وترسيخ الدعم الشعبي الذي كسبته خلال الحرب. هل سيكون بإمكانها تمرير عودة جهاز الأمن التابع للسلطة إلى غزة بلا مواجهات، أخذاً بالاعتبار أن إجراءات القمع في الضفة الغربية وفي القدس مرشحة ليس فقط للاستمرار بل لأن تزداد حدة وكثافة؟ ليس بإمكان إسرائيل إعادة ترتيب الأثاث داخل غزة ولكنها تملك فعل ذلك في المناطق التي تسيطر عليها بشكل مباشر. وهل سترتد آثار الحرب على غزة على الأنظمة العربية التي حرضت على الحرب ودعمتها؟ وهل سيرفع الحصار في نهاية المطاف عن قطاع غزة؟

لا يتسنى بعد الإجابة عن أي من هذه التساؤلات.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/3557/